مقالات العمران

اعمار غزة ... بين العمارة والسياسة

د. فريد القيق
رئيس قسم الهندسة المعمارية
الجامعة الإسلامية بغزة
falqeeq@iugaza.edu.ps

لقد كثر الحديث في الاونة الاخيرة عن مسألة إعادة اعمار قطاع غزة بعد ما تعرض له من هجمة شرسة من قبل قوات الاحتلال. ولقد إجتهد الكثيرون في رسم معالم المرحلة القادمة من اعادة الاعمار بجذوهم الامل في أن يد المحتل ستكف عن عدوانها وبأن المليارات الموعودة كفيلة بإصلاح ما افسدته آلة الحرب الاسرائيلية. وحقيقةً كنت أود أن تكون هذه المقالة معمارية خالصة لولا أنه مازال الناس يتحركون وهم يحملون فوق رؤوسهم أطناناً من الذكريات المؤلمة.

> ,, مازال الناس يتحركون وهم يحملون فوق رؤوسهم أطناناً من الذكريات المؤلمة ,,

لا شك بأن سكان القطاع يحتاجون الى ترميم النفوس وتأهيل المعنويات قبل اعادة الاعمار. ادركت ذلك جيداً وأنا أتابع عن كثب زميل لي كانت شقته قد دمرت بالكامل خلال الحرب. سمعت حينها الخبر في المذياع، الوسيلة الوحيدة لمتابعة ما يحدث من حولك خلال فترة الحرب بعد إنقطاع التيار الكهربائي. خرجت مسرعاً صباح ذلك اليوم لأطمئن عليه برغم أزيز الطائرات التي ما تزال تحلق في الجو. فالحياة في غزة تعلمك بأنه لا يخشى أحد سوى الله وأن الحياة رهان يومي ما بين نفسك والموت. وجدته رابط الجأش يحاول إستطلاع الموقف وسط ركام المنزل. وكانت عيناه تحاول أن تستقرء شيء ما في هذه التلة من الحجارة المكومة. واخيراً وجد ضالته، ثغرة بسيطة تنفذ الى بقايا ما كان بالأمس موطناً صغيراً لعائلة هانئة. تسلل للداخل رغم المخاطرة وقد أصابتني الدهشة، فما الذي يمكن أن يستحق من صديقي كل هذا العناء. وبعد برهة رأيته يخرج موشحا بالتراب وقد انفرجت أساريره بعض الشيء وهو يلوح بيده بجهاز الحاسوب المحمول الخاص به والذي لم يتأذى الا قليلاً. نعم أيقنت بأن الأمر كان يستحق المجازفة، فأنا أعرف ماذا يعني له هذا المخزن الالكتروني والذي يحوي حصيلة الانتاج العلمي والرصد البحثي والدراسي طوال سنوات عدة، بالاضافة طبعاً الى الموارد الشخصية والعائلية. قلت له مداعبا لأكسر حدة الموقف، إذاً فشريط الذكريات لم يفنى بعد. نعم ربما يمتلك الإنسان حاجيات كثيرة تعز عليه، كلها تبقى متواضعة بجانب هذه الذاكرة الالكترونية الصغيرة الحجم، ولكنها تستطيع أن تتسع لرصد عشرات المواقف والسنين. إستشعرت برغم ذلك حجم المصاب. وماذا يعني أن يفقد الانسان بيته، فقد ضاع الوطن الاصغر بعد أن ضاع الوطن الأكبر منذ عقود. إعتقدت ولأول مرة بأنه ربما كان أمراً جيداً أنني لا أملك بعد في غزة ما يمكن الخوف عليه. هذا إذا سلمنا بأن الأعمار بيد بارئها وبأنها ليست في قائمة الحسابات المادية. نعم فبرغم سنين الكفاح لم أفلح حتى الآن في تملك شقة خاصة، قلت في نفسي وهل يأمن الإنسان أن ينهض من نومه فاذا ببيته أثراً بعد عين. فالحمد لله على كل حال.

أما البيت الثاني لنا جميعاً في الجامعة الاسلامية فهو الحرم الجامعي والذي عدنا بعد أن إنقشع غبار المعركة ورأينا ما أصابه من تدمير. جدران مهدمة ونوافذ محطمة وزجاج متناثر في كل مكان. وكانت لحظات تدمي القلوب أن نرى بعض هذه المباني التي شيدت بالكد والتعب والمثابرة المتواصلة عبر السنين، تختفي في ثوان معدودات. ولكن كان لابد لطائر العنقاء الفلسطيني أن ينهض من تحت الرماد ليواصل طريق العز والكرامة، هذا الطريق الذي خطه رب العالمين لجنده المرابطين في أكناف بيت المقدس. وإن كان لابد لهذا الانتصار من ثمن، فهو يهون في سبيل رضى الله ورسوله، وإن كان لابد من دماء طاهرة أن تسيل لترسم معالم النصر القادم، فلتكن دماء الشهداء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ومن عهدة الشهداء كان لابد لقسم العمارة أن يكون له نصيب، هذا القسم الذي اصطفى له الله الشهداء في كل مرحلة من مراحل النضال الفلسطيني، وكان أمير شهداء هذه المرحلة هو شهيد القسم المهندس أمير يوسف المنسي والذي كان زميلاً لنا ضمن الكادر التدريسي لقسم العمارة لفترة تزيد عن الثلاث سنوات، وكان من أوائل الملتحقين لبرنامج ماجستير الهندسة المعمارية، والذي تم افتتاحه هذا العام. وهنا لابد أن نحيي زملاء الشهيد والذين قرروا أن يطلقوا اسمه على أول فوج لبرنامج الماجستير في الهندسة المعمارية، وقدمنا لهم في ذلك كل دعم ومؤازرة. كذلك لا ننسى شهيد القسم الطالب كساب شراب والذي كان قد اقترب من مرحلة التخرج منذ حوالي العامين ولكن ظروفاً خاصة حالت بينه وبين إكمال متطلبات تخرجه فنال شهادة أخرى، نسأل الله أن تكون له خيراً من شهادات الدنيا وما عليها. كذلك لا ننسى الجرحى والمصابين من أبناء القسم والذين نتمنى لهم الشفاء العاجل. كما لا ننسى أن نتقدم بخالص رسائل المؤازرة والتضامن لزملائنا في مجلس قسم العمارة والذين تضررت بيوتهم بشكل كلي كمنزل آل عوض الله الكرام أو بشكل جزئي كمنزل المهندسة الفاضلة سهير عمار، نسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم وان يجزيهم عن شعبهم وأمتهم خير الجزاء.

• القصف الذي استهدف مباني مختبرات الجامعة الإسلامية

نعم إنتهت الحرب وبـدأت الحياة تدب في الأرض، من وسـط الركام ومن فوقه ومن بين جنباته. فهذه سمة أهل غزة التي تقهر كل الأعادي. سـرعة إمتصاص الصدمات والتعامل مع المتغيرات. فالحياة في غزة وبـفضل اللّه تسـير بـرغم الألم والجراح وفي كل الظروف مهما بلغت قساوتها وعلى هديرها. نعم وضعت الحرب أوزارها ولو لحين. ولكن كل دقيقة فيها تركت سجلاً حافلاً منقوشاً في القلوب والعقول منذ دق ناقوسها وحتى آخر غارة. مازلت أذكر لحظة بدأت الأحداث وقد كنا نجلس نناقش مع طالبات التخرج مشاريع التخطيط العمراني المستدام، وكانت اللحظات التي لا يمكن أن تنساها الذاكرة بسهولة حين اهتز المبنى من تحت أقدامنا ورأينا بأم أعيننا هذه الوحشية التي قصفت الأرض والبشر من حولنا. نعم كنا شهداء على هذه الجريمة النكراء التي ما شهد لها العالم مثيلاً. وكان الهدف أن تهزم المعنويات وأن يتسلل الهوان إلى النفوس وأن تتعطل مسيرة العمل التي توصل إلى الحياة الحرة والكريمة. ولكن عدنا بحمد اللّه بعزيمة أقوى وأصلب عوداً على مواصلة المسير. وبمشاريع طلابية مميزة ستسهم بإذن اللّه على تزويد القطاع ببنى تحتية جديدة ومشاريع تطويرية تثري عمليات إعادة الأعمار والبناء لقطاعنا الحبيب.

صحيح إن إعادة الاعمار في ظل هذا الواقع المضطرب والتهديدات المتواصلة باستهداف القطاع يجعل من عملية الاعمار كمبنى بدون أساسات، يمكن أن يقع في أي لحظة. لكن تقليل حجم الاضرار الناشئة من أي عدوان لاحق يفرض على المهندس الفلسطيني العديد من التحديات في كيفية ابتكار أساليب جديدة من عمارة مضادة للصدمات، عمارة يمكن أن توصف بأنها عمارة المقاومة. فلا شك بأن الانسان الفلسطيني بحاجة الى مأوى يحميه من براكين القصف الاسرائيلي عبر إنشاء الحجرات الآمنة والملاجيء المقواة. فهذه الجهود مازالت لا ترقى الى مستوى التحديات بالنظر الى ما يقوم به الجانب الاخر من تحصينات برغم عدم تكافؤ التهديدات والمخاطر. ولكن ما زالت مرحلة اعمار القطاع معلقة تنتظر توازنات محلية وإقليمية دقيقة تفتح الأبواب لهذه الجهود. ومازال القطاع الهندسي الذي أصابه الجمود منذ ما يزيد عن الثلاث سنوات ينتظر أن يأخذ دوره في اعادة الاعمار، بالرغم من التخوف بأن تستأثر جهات هندسية خارجية بنصيب الاسد من هذه المشاريع في ظل الضعف الذي أصاب قطاع الانشاءات المحلي وقلة الامكانات الفنية واللوجستية مقارنةً بالشركات العالمية الكبرى.

ولكن لغاية هذه اللحظة مازالت الكرة الارضية تدور حول محورها مرات ومرات. وبالرغم من ذلك يبقى قطاع غزة ثابتاً كقطباً ثالثاً متجمداً لا تصله الشموس ولا تسري عليه قوانين الأكوان. فالحياة في غزة قد تيبست أطرافها وأصاب الشلل كل عضو فيها. نعم فهذه الصورة الفوتوغرافية التي يمكن أن تلتقط لبانوراما مدينة غزة لم تتغير منذ ثلاث سنوات. فالزمن قد توقف بمنع دخول مواد البناء اللازمة لنمو المدينة. ومع زيادة السكان في ظل ثبات عدد الوحدات السكنية، بدأت المباني تطفح بساكنيها. وبعد الهدم والدمار الذي أصاب الآلاف من البيوت السكنية خلال الحرب الاخيرة لم يجد الناس الا أن يعودوا بالتاريخ الى نقطة بدايته قبل ستين عاماً، حيث كانت الخيام رمز المخيمات والنكبة تطفو على السطح من جديد. ولكنها هذه المرة هي خيمة تنصب فوق حطام المباني المدمرة ولا تتزحزح قيد أنملة عن احداثيات تواجدها فوق سطح البسيطة. أما الركام الذي يملأ الآفاق، فلاشك بأن التعامل الحكيم قد يحول هذه المخلفات الى داعم قوي لعمليات اعادة الاعمار بإعادة تدوير هذه المواد والاستفادة منها في إيجاد عناصر بناء أساسية أو إستخدامها لردم مناطق شاطئية وإقامة السنة خربة تعمل على تدعيم الساحل بالعديد من الاماكن الترفيهية ومواطن الاستجمام التي يتوق لها ابناء القطاع. نعم ليس امامنا الا أن نحول هذه المحنة الى منحة وهذا الركام الى مادة خام ومورد من موارد القطاع التي يمكن أن تشكل عنصراً هاماً للبناء بعد أن كانت رمزاً للهدم والدمار (٦٠٠،٠٠٠) طن من الركام، رقم لا يمكن تصور ما يعنيه الا إذا خرجت بجولة للمناطق التي دمرها الاحتلال. لقد سنحت لنا الفرصة بمرافقة وفد نقابة المهندسين الاردنيين، والذي أتي مسرعاً لمساندة زملاءه في غزة وتقديم الدعم اللازم بعد أن تحمل الكثير من المشقة والعناء للوصول الى القطاع. تأثرت كثيراً بعد هذه الجولة، فبرغم أننا كنا وسط الحدث ليل نهار، لم أكن أتصور بأن حجم الدمار هو بهذا المستوى من التخريب. مناطق بأكملها قد سحقت وسوت بالأرض، ومع كل كيلومتر إضافي كان الباص يقطعه كانت الكارثة تنمو وتتضخم أمام أعيننا. توقفنا في احد المحطات في منطقة الخلفاء وأرتقيت مع بعض الزملاء أنقاض منزل الشهيد نزار ريان. ومن بين الحطام إنحنى زميل لي لانتشال شريط كاسيت من بين الركام، تصلبت يداه بعد ان نفض التراب فاذا باسم الشريط يتكشف لتظهر عبارة "عرس الانتصار". يا اللّه ما الذي تحمله هذه الحجارة من ذكريات وعبر لأهلها وللعالمين. ●